

القصيدة اللامية من ديوان تيسير الوصول إلى حضرة الرسول للشيخ إبراهيم إنياس الكولخي التجاني: دراسة أدبية تحليلية

إعداد:

الدكتور محمد زكريا عيسى

كلية محمد غوني للشريعة والقانون والدراسات الإسلامية
ميدغري ولاية برنو نيجيريا.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فإن الإنسان - بطبعه - ميل إلى حب من يحسن إليه، سواء أكان الإحسان ماديا أو معنويا، فيحب من أجل ذلك والديه وإخوانه وأقربائه ومعلميه وكل من يحسن إليه ويساعده في جانب من جوانب حياته المادية والمعنوية والروحية. وهذا الحب لا يكون على درجة واحدة، بل على حسب كثرة الإحسان وقلته، فمحببة الولد لأمه غالبا ما تكون أكثر من محبته لأبيه، ومحبته لأبيه تكون أكثر من محبته لإخوانه وهكذا دواليك... ذلك لأن تجارب الأم نحو الولد أكثر من غيرها. وأنه كلما كانت التجارب والإحسان أكثر كلما ازدادت المحبة وتمكنت في القلب.

ولما كان الوالدان هما سبب وجود هذا الولد في هذه الحياة الدنيا، فإنهما يستحقان منه التقدير والمحبة والشكر والإحسان إليهما.

لذلك أمر الله تعالى ببرهما وطاعتهما في غير معصية قال تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾^(١).

كما كان الوالدان هما سبب وجود المولود في الحياة الدنيا بمشكلاتها المختلفة وأنظمتها المتنوعة ودياناتها المتعددة، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - هو السبب في إخراجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

فإذا قورن إحسانه صلى الله عليه وآله وسلم بإحسان الوالدين، فإننا نجد إحسانه أكثر بكثير من إحسانهما، بل لا مقارنة أبداً بينهما، وإن كان لا بد من المقارنة فيكون عندئذ إحسان الوالدين بمثابة قطرة ماء في البحر المحيط.

وإذا تقرر هذا، فإن محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجب أن تكون أكثر من محبة الوالدين، بل من محبة الإنسان لنفسه، فحبه يعتبر من الإيمان، وشدة حبه تعتبر من كمال الإيمان قال عليه الصلاة والسلام ((فو الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده))^(٢) وفي رواية شعبة ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين))^(٣) لذلك أنكر الرسول عليه الصلاة والسلام على عمر بن الخطاب حين آثر نفسه بالمحبة على رسول الله، حتى إذا رجع عن ذلك وأحب النبي أكثر من نفسه أقر له النبي عليه الصلاة والسلام بكمال الإيمان.

فالإيمان إذن لا يكتمل إلا بمحبة رسول صلى الله عليه وسلم لذلك عقد البخاري باباً في ذلك، وقال: ((باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان))^(٤).

وهذا الحب هو السبب الرئيس في مدح المسلمين للنبي عليه السلام بقصائد كثيرة منذ عصر الصحابة كحسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة والخنساء وغيرهم. وما من عصر من العصور إلا وتجد شعراء يقرضون الشعر في مدحه، واستمر المديح على مدى العصور إلى أن جاء الشيخ إبراهيم بن الحاج

عبد الله نياس الكولخي، فأدلى هو الآخر بدلوه في المديح بقصائد حمة جمعت في كتاب بعنوان الدواوين الست.

ولما رأى الباحث الدواوين الست كتب لها القبول ورأى تعلق الناس بها حيث يقرءونها في المناسبات الدينية لاسيما في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، ود دراسة قصيدة من قصائد تيسير الوصول إلى حضرة الرسول وتحليلها وهي قصيدة لامية.

نبذة عن حياة الشيخ إبراهيم بن الحاج عبد الله نياس

هو الشيخ إبراهيم بن الحاج عبد الله نياس التجاني ابن السيد محمد بن مدمب بن بكر بن محمد الأمين بن صنب بن الرضى^(٥).

ولد يوم الخميس بعد العصر عند انتصاف رجب الفرد سنة ١٣٢٠ هـ الموافق السابع عشرة من أكتوبر ١٩٠٠م بقرية طيبة أنيسين وهي قرية بناها والده بإقليم سين سالوم في جمهورية السنغال^(٦).

نشأ الشيخ في حجر والده الشيخ الحاج عبد الله نياس وقد اهتم بتربيته وتعليمه اهتماما كبيرا لما رأى فيه من النجابة والذكاء والبر، وكان الشيخ إبراهيم يحب القراءة والاطلاع منذ نعومة أظفاره وكان يستغرق أوقاته في مطالعة دروسه عند والده^(٧).

ولحرصه في التعليم أنه حاول تعلم اللغة الفرنسية في صغره بالإضافة إلى دروسه العربية غير أن والده منعه عنها فامتنع واكتفى باللغة العربية وكان يقول: "لو كان لي في اللغة الفرنسية والانجليزية باع لحملت الإسلام إلى كل باب من أبواب الأوربيين"^(٨).

تبحر في العلوم العربية والدراسات الإسلامية فتصدر للتعليم والتأليف وهو شاب يافع.

له إنجازات كثيرة في شتى العلوم والفنون على شكل كتب ورسائل ودواوين أكثرها في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم.

انخرط في سلك الطريقة التجانية منذ صغره على يد والده الشيخ الحاج عبد الله نياس، ولم يكد يتجاوز العشرين من عمره حتى تدفقت إليه الإجازات من شيوخ الطريقة التجانية وذلك بعد وفاة أبيه مباشرة.^(٩)

كان يجوب الأقطار الإفريقية وغيرها للدعوة إلى الله تعالى ونشر دينه فأسلم على يده خلق كثير، واعتنق الطريقة التجانية على يده ملايين المسلمين^(١٠) ولعل هذا هو السبب في تلقينه بصاحب الفيضة التجانية.

وهناك مقالات نشرت في مدح شخصيته في بعض الصحف والمجلات نختار منها ما جاءت في مجلة آخر ساعة المصرية في عدد ٢١٢٨ الصادر بتاريخ ١٩٧٥/٨/٥م مقالا بعنوان "الشيخ إبراهيم نياس زعيما لأكثر من ثلاثين مليونا من المسلمين وصديقا للعرب، ونصيرا للقضية الفلسطينية".

ذكر فيه الكاتب بإمامة الشيخ للمسلمين صلاة الجمعة بالجامع الأزهر ١٩٦١م كما أضاف أنه يعود إليه الفضل في إقناع عدد من الدول الإفريقية بإدخال اللغة العربية في التعليم، وختم بأن الشيخ رفض كل المناصب التي عرضتها عليه السلطات ليتفرغ للدعوة الإسلامية.^(١١)

هذا وقد أصبح نائبا لرئيس مؤتمر العالم الإسلامي بـ(كراتشي) وعضوا مؤسسا في كل من رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة وجمعية الجامعات الإسلامية

بالرباط، وفي المؤتمر السنوي لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة وغيرها من الهيئات الإسلامية العالمية. (١٢)

ولقد أبلاه مولاه بحب المصطفى عليه الصلاة والسلام فمدحه بقصائد جمّة في دواوين كثيرة، وكان المدح لجناب المصطفى شغله الشاغل إلى أن "انتقل إلى رحمة ربه يوم الأحد ٢٧ يوليو ١٩٧٥ م في لندن المملكة المتحدة. (١٣)

دراسة القصيدة:

عرض القصيدة:

تحتوي هذه القصيدة على سبعة عشر بيتا من بحر الطويل على روي لامي، ومأخوذة من ديوان تيسير الوصول إلى حضرة الرسول البالغ عدد أبياتها أربعمائة واثنان وأربعون بيتا (٤٤٢) على عدد مكة في حساب الجمل.
إستهل الشيخ قصيدته بمخاطبة شخصين انتزعهما من نفسه كعادة الشعراء مستنكرا تعلقهما الشديد بالنساء ويأمرهما بتقليل ذكرهن مهما يكن حسنهن وجمالهن قائلا:

دعاني من سلمي وليلي وقللا* تذكر ربات الغدائر مسجلا
وختمها بالصلاة على النبي المختار بعد التضرع لله والتوسل برسوله الكريم أن يبلغه الله منا وأمنية كافة المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها.

مضمون القصيدة

لقد أحب الشيخ الرسول عليه الصلاة والسلام حبا شديدا، بل لم ينشغل في حياته أبدا بحب غيره، لأنه لم يسبق في قلبه شيء إلا حبيب المصطفى صلى الله

عليه وآله وسلم وهذا ما يقوله هو بنفسه في موضع آخر من ديوانه حيث يصرح بذلك قائلاً:

أتاني هواه قبل أن أعرف الهوى * صليت بنيران اشتياقي أحمدا
لذلك كرس جهوده كلها في مدحه، فمدحه بقصائد كثيرة جمعت في كتاب
واحد يحتوي على ستة دواوين كل ديوان يشتمل على عدة قصائد موبوءة على
أحرف الهجاء.

والقصيدة التي نحن بصددنا يمدح فيها الشيخ محبوبه وينعته بنعوت كثيرة
وصفات لائقة بجناب محبوبه عليه الصلاة والسلام يستهلها بقوله:

دعاني من سلمى وليلى وقللاً * تذكر ربّات الغدائر مسجلاً
أي أتركاني يا خليلي من ذكر محاسن النساء أمثال سلمى وليلى وغيرهما منها
النساء اللائي طالما شغف الشعراء بهن وتغنوا بجمالهن وحسنهن، وإن لم تستطيعا
ذلك فقللاً من ذكرهن ومحبتهن وأكثرنا من ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم
الذي من أجله تاب الله تعالى على أبي البشر سيدنا آدم عليه السلام حين أكل
الشجرة. ثم ينتقل إلى أمر آخر هو أن النبي صلى الله عليه وسلم أصل
الكائنات، وأنه هو أول مخلوق على الإطلاق وأن كل شيء خلق من نوره،
وبهذه الحثية يكون الرسول أصل وفرع في أن واحد، أصل لأنه مصدر الكل
وأصل الكون وفرع لأنه ابن آدم، وهذان الضدان لا يجتمعان لأحد إلا لرسول
الله صلى الله عليه وسلم لذلك يقول الشيخ في موضع آخر من الديوان: (و ضد
بضد حير العقل والقلبا) ويقول بناء على هذا أنه عليه السلام هو الجدير بأن
يكثر من مدحه لأنه ينشط القلب ويهز الفؤاد ويصير الجنان بذكره خالياً من
الشهوات المعركة للقلوب والتي تقف حاجزاً بين الإنسان والصفاء الروحي التي

من أجلها خلق الإنسان. قال تعالى ﴿فَدَأَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(١٤) وقال ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(١٥) ولا شك أن القلب لا يسلم من الرعونات البشرية والشهوات البهائية والوساوس الشيطانية والدسائس النفسية إلا بطاعة الله تعالى المتمثلة في امتثال أوامره واجتناب نواهيه التي هي الاستقامة -رزقنا الله إياها- ولن تستقيم القلب إلا بطاعة رسول الله ولن تكون ذلك إلا بمحبة وجدانية له لقوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾^(١٦) وقوله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾^(١٧) واستمر الشيخ يذكر من خصائص الرسول ومآثره من ذلك أن الجنان بما فيها من الحور العين والملذات ما طابت إلا بنشر طيب محبوبه، وأن البدر اكتسب نوره منه ولا غرابة من ذلك لأن القمر مخلوق من نوره حيث يقول:

لذكر الذي من ذكره تيب قبله	على آدم إذ كان فرعاً موصلاً
لذكر الذي لم يذكر الحق غيره	مدى الدهر والأيام خير من أرسلنا
لذكر الذي تعرفوا فؤادي هزة	لدى ذكره والقلب صار مقتلاً
لذكر الذي طاب الجنان بنشره	ومنه ضياء البدر بداراً مكملًا

ثم أكد مرة أخرى على أن محبوبه هو بذرة هذا الكون وأنه أصل المخلوقات ولولاه ما وجد أي مخلوق، يعني أنه السبب في وجود أي عنصر من عناصر الحياة، ويرى أن الحياة بدون المصطفى حياة مهملة لا طائل تحتها وأنه من ساس نفسه بصفات المصطفى بحيث أديها طبقاً لما ورد من صفاته صلى الله عليه وسلم نال عزا عظيماً في حياته وبعد مماته.

ويرى كما يرى غيره من المداحين للمصطفى عليه الصلاة والسلام أن مآثره كثيرة كثيرة لا يمكن معها العد والحصر وبالتالي يكون المجال في مدحه واسع،

فليقل المداح ما شاء مما يخطر بباله من نعوت وأخلاق كريمة شريطة أن يجعله عبدا مفضلا على جميع المخلوقات على الإطلاق وأن لا يتجاوز الحد كما تجاوز في مدحهم لروح الله عيسى عليه السلام وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم حيث جعلوه ابنا لله تعالى، لذلك يقول البوصيري مستنكرا هذه العقيدة:

دع ما ادعته النصرارى في نبيهم * واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم^(١٨)
 وختم القصيدة كعادته بالدعاء والصلاة على النبي المختار متوسلا به أن يجعله وأحبابه وأصحابه وتلامذته مقربين لدى رسول الله وأن يجعلهم أئمة للمتقين إلى ما شاء الله أن يكونوا وأن يلين لهم قلوب الماردين ويكسرهما لهم ويقو يقين المؤمنين أصحاب الهمم العالية ويغن كل من انتمى إلى حزبه. ولعله يعنى بالحزب الطريقة التجانية وبالغنى غنى النفس وينج كل من آمن بالله ربا وبمحمد نبيا ورسولا من جميع الابتلاءات والمصائب العاجلة والآجلة كما يرجو من المولى الكريم أن يرقبهم بالشكر فإنه ملجأ العاجزين وجنده يغلب عدوه في كل وقت وحين وفي كل حال من الأحوال في حال ضعف آرائهم وعدم استعدادهم للحرب وعدم سلامة خطتهم ودقة ترتيباتهم لها، نحمدك ونشرك شكرا متصفا بالدوام، لأنه من اعتمد عليك يا الله وتوكل عليك لم يخش شيئا، ثم ختم القصيدة بالصلاة والسلام على طاه المسمى أحمد وعلى آله وأصحابه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين حيث يقول:

فلولاه لا تلفى ليأدا فإن لبذرة هذا الكون إذ كان مر لا
 ولولاه لا أرضى حياتي بلحظة فحي بغير المصطفى البدر أهمل
 ومن بصفات المصطفى آل كله حياة وموتا نال عزا مبجلا
 مآثر خير الخلق غير محصر فقل فيه ما قد شئت عبدا مفضلا

فيا رب فاجعلي لديه مقربا
وتجعلنا للمتقين أئمة
ولين ضحور الماردين وهدها
وأغن فقير المنتمين لحزينا
ترقيهم يا رب بالشكر دائما
أيا رب من جنده الدهر غالب
لك الحمد والشكر المسرمد دائما
صلاة وتسليم على طاه أحمد

وصحي وأحبابي ومن كان موصلا
إلى ابد الأباد سيبا مرصلا
وقو يقين المتقين ذو العلا
ونج جميع المؤمنين من ابتلا
فإنك ملجا العاجزين مجلا
ولو ضعفت آراؤهم يا مؤملا
فلم يخش من يلجا إليك توكللا
وآل وأصحاب ومن كان مرصلا

تحليل القصيدة

أ/ الأسلوب:

تتصف القصيدة بسلامة التركيب ووضوح البيان وصدق العاطفة ووضع الألفاظ في أماكنها المناسبة ويتخلل القصيدة شعور عميق بمحبوبه وليس بالقصيدة تعقيد لفظي أو معنوي، وخياله واسع حيث عبر عن النور المحمدي ببذرة الكون ليقترب المعنى في الأذهان والخيال هو القادر على جعل المحسوس معقولا والعكس بالعكس فجعل الشيخ المعقول محسوسا.

ب/ الألفاظ:

فالألفاظ المستعملة في القصيدة تبدو سهلة المعاني ولا تجد فيها ألفاظ وحشية، وتتسم الألفاظ بالسلاسة.

ج/ الصور البيانية:

إذا ألقيت النظر في القصيدة فستقف على الصور البيانية التالية: الاستعارة التصريحية في عجز البيت الخامس حيث شبه الرسول بالشمس وحذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وأجرى هذا اللازم على المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، وفي البيت نفسه نجد الاستعارة التصريحية في صدر البيت حيث شبه الرسول أو رآئحته صلى الله عليه وسلم بالعطر وحذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وأجرى هذا اللازم على المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية. وفي صدر البيت الثاني عشر نجده يشبه القساوة بالصخور بجامع الصلابة يعني شبه قلوب المجرمين والظلمة بالصخور ويطلب من الله تعالى أن يلينها ويكسرهما.

هذا ونجد الشيخ تأثر تؤثرًا واضحًا بالتصوف الإسلامي، فالقصيدة تعتبر من الغزل الصوفي، فيها المعاني الصوفية.

منها:

أنه صلى الله عليه وسلم فرع واصل من آن واحد وهذا المعنى ظاهر في البيت الثاني من القصيدة حيث يقول:

لذكر الذي من ذكره تيب قبله * على آدم إذ كان فرعا موصلا
وصدر البيت نفسه يحمل معنى صوفيا آخر هو أن سيدنا آدم تاب الله عليه عندما صلى على النبي أو ذكر اسمه فلم يجد المغفرة والتوبة إلا من أجل الصلاة عليه. وفي البيت السادس تأكيد لما جاء في البيت الثاني من انه صلى الله عليه وآله وسلم أصل الكائنات وأنه بذرة هذا الكون وأنه لولاه ما خلق مخلوق، والكل مخلوق من نوره صلى الله عليه وآله وسلم.

على أنه ليس وحده القائل بهذا وإنما سبقه غيره من السادة الصوفية منهم
الشيخ يوسف النبهاني حيث يقول في مستهل قصيدة له:
نورك الكل والورى أجزاء * يا نيا من جنده الأنبياء
علة الكون كنت أنت ولولا * لدامت في غيبها الأشياء^(١٩)
د/ الوزن والقافية:

القصيدة من بحر الطويل ووزنه كالآتي:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن * فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن
ثمان مرات، أربعة في الصدر وأربعة في العجز، أعاريضها كلها مقبوضة
وكذلك أضرها يتخلل في أحاشيها القبض وهو نوع من الزحاف المفرد وهو
(حذف الخامس الساكن)^(٢٠) الواقع ثاني السبب الخفيف.

والقصيدة كما سبق أن ذكرنا لامية وقافيتها مطلقة نوعها المتدارك، هذا ما
يتعلق بالجرس الخارجي. أما الجرس الداخلي فيتمثل في تكرار اللام في البيت
الأول من الكلمات التالية: سلمى وليلى وقللا وفي البيت الخامس كرر الدال
والراء في الكلمتين التاليتين البدر بدرا فهذا التكرار نحس منه نغمة موسيقية تزيد
القصيدة رونقا وجمالا.

هـ/ التكرار: نجده أحيانا يكرر بعض العبارات كتكراره العبارة الآتية (لذكر
الذي).

هذا التكرار لموجب يقتضى ذلك، هو شدة تعلقه بمحبوبه، أي فعل ذلك
لغرض ذكر الحبيب لأن من أحب شيئا أكثر من ذكره.
ومثل هذا التكرار نجده عند كثير من الشعراء.

الخاتمة

إن الشيخ إبراهيم نياس يعتبر من أكبر علماء إفريقيا وشعرائها ومن أقطاب المتصوفة في عصره، ولقب بـ(شيخ الإسلام) ونشر الإسلام والطريقة التجانية في إفريقيا وفي غيرها من القارات وله مؤلفات كثيرة.

مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقصائد عدة بز فيها كثيرا من شعراء عصره.

تخلل في قصائده المصطلحات الصوفية التي لا يستطيع الوقوف على معانيها إلا المتصوفة واستعمل في هذه القصيدة الألفاظ الفصيحة المألوفة لذا جاءت عباراته سلسلة لا يحس فيها القاري، بكلل ولا ملل، ولعل هذا هو السر في انكباب كثير من الناس إلى قراءة ديوانه في شهر ربيع الأول أو في أي مناسبة من المناسبات الدينية.

هذا ونقترح للباحثين والدارسين الاهتمام بهذه الدواوين دراسة وتعليقا وتحليلا بأنواعه المختلفة حتى يستفيدوا ويفيدوا غيرهم من تجارب هذا الشيخ.

هذا فما كان صوابا فمن الله ومن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان والحمد لله أولا وآخرا.

الهوامش:

- (١) سورة الإسراء، آية ٢٣
- (٢) محمد بن إسماعيل البخاري (الإمام) صحيح البخاري ج ١ ص ٩
- (٣) المصدر نفسه، ص: ٩
- (٤) المصدر نفسه، ص: ٤

- (٥) يعقوب أبوبكر الغالي، إتحاف الإخوان بمآثر غوث الزمان، ص: ٢٤
- (٦) المصدر نفسه، ص: ٢٧
- (٧) المصدر نفسه، ص: ٢٨
- (٨) المصدر نفسه، ص: ٢٩
- (٩) المصدر نفسه، ص: ٣٧
- (١٠) المصدر نفسه، ص: ١٨١
- (١١) المصدر نفسه، ص: ٣٤٣
- (١٢) المصدر نفسه، ص: ٣٤٤
- (١٣) سورة الشمس، آية ٩
- (١٤) سورة الشعراء، آية ٨٨
- (١٥) سورة آل عمران، آية ٣١
- (١٦) سورة المائدة، آية ٩٢
- (١٧) محمد علي بن علان، العدة في شرح البردة، ص: ٥٢
- (١٨) يوسف النبھاني (الشيخ) طيبة الغراء، ص: ١
- (١٩) مأمون عبد الحليم وجيله (الدكتور) العروض والقافية بين التراث والتجديد
ص: ٢٥.
- (٢٠) حسين نصار (الدكتور) التكرار، ص: ٣٤ وما بعدها.